

غرور أهل باريز. فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس إلى الزهادة ومجيب إليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون وأعمال دينوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية. إن ما رأيته من انتظام البيع الباريزية وتفنى البائين في إبداعها وتفانيهم في توفير قطعها من الجمال دلي بنسان حاله عني أن مدينة القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجل مصانع تلك القرون وكان أكثرها إلى الزوال لو لم تتدارك في القرون الحديثة بنسب من إنارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدينة هذا العصر فلا أدل عليها إلا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكن الحديدية والبوارج والبواخر والمرافئ والمعامل والشكن والمستشفيات والمدارس والكنيات ودور البائسين والحقول الأثمدجية والمتاحف وحمير الوحوش والمكتب ودور التخل. فهل يأتي عني البشر عصر يا ترى يكون فيه ما ينم عن مدينتهم غير ما ذكرنا قديماً في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكاليفهم عني مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ما خففته عصور التدين من المصانع والعبادات التي انتقلت إلى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم. هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالإجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياتها

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة: مصرف فرنسا وقصر الإليزه حيث يتقيم رئيس الجمهورية وقصر الأنفاليد والتوينيري وقصر العدلية وقصر ساحة المريخ

وقصر التروكادير والقصر الملكي وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانكيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البندي. وتكنم هنا عني القصور الثلاثة الأخيرة فقد كتبت لي زيارة مجلس نواب الأمة الفرنسية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين فلم أسر بمشهد أجهل ولا أفخم وقلنا نثل لي معنى النيابة عن الأمة إلا ذلك اليوم. ومجلسا النواب والأعيان هما مفخر من مفاخر هذه الأمة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففي مجلس الأمة الحركة والمضاء وفي مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالأول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر النوكسبورغ وكلا القصرين من أجهل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همة الشباب وعدد الأعيان ثلثمائة تقرأ في وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة.

وما أنس ولا أنس يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العنلة وقد تدفقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم إلا الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والسياسي والإداري.

وإن ما تلي في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الأعضاء لو جمع في كتاب يرأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعي اقتصادي عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ما هو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته أجزاء النفس فلينزل مجلس النواب الفرنسي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى.

أما المجلس البندي فهو معيار العبران ويده إسعاد باريز وإشقاؤها. يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى في باريز بطلب من الزائر يقدمه إلى أمين سر المعهد فيرسل هذا إليه

ورقة يعين له فيها المعاد الذي يأتي فيها.

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسي وعظمة هذه الأمة لكثرة ما يقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدان بنقوش وصور ورسوم من أجل ما خطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني النظيفة والإشارات الحسنة.

فن رسم يمثل الغناء والعشيرة وآخر يمثل الزهور والسنار وغيره يصور أغاني شواطئ السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لأجل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت عنى الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من منوك الأرض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يرينك الطبيعة المنهضة المربية فالرياضيات الطبيعية فالرياضيات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز. وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والأنعام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالإيماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والألعاب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب. ومنها الموسيقى عنى اختلاف العصور والطوب والعمود ومدينة باريز تدعو العالم إلى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر

وبيكارديا والجزائر وليون ولانكلوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبرى وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا وأوفرن واللورين ونورمانديا وكوتية نيس. ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا وأوروبا وأميركا وإفريقية ومنها ما يصور تأليه العنوم وهو رمز لعنم الأحداث الجوية والكهربائية وتعنيم العنم وتمجيد العنم وأربع أيقونات تمثل عنم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وأمير وكوفيه ولافوازيه. ومنها رمز إلى ساعات الليل والنهار ومشاهد الأفراح والأعياد وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عنانس الشعر والإلهام والتفكير وتاريخ الكتابة وأعظم الأعمال الأدبية وأربع أيقونات لأربعة أدياء وهم مولير وديكارت وفكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير إلى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الأفكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نانسان وهما يمثلان الأدب وفي سقف ردهة الفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتناثيل التي تشير كل واحدة منها إلى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد ولكنها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن في العالم ولا سيما من أهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما خصوا به من المزايا وسعة العنم وبعد النظر وحسن النوق.

وعلى الجملة فإن الشرقي الذي يزور قصر الجنس البندي في باريز تصغر بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقائها وهضبة أبنائها.

أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها إلا أنها عظيمة جداً ويكفي أن المجلس طنب من الحكومة هذه الأيام أن تسح له بعقد قرض قدره تسعمائة

مليون فرنك ليظهر بعض أحياء باريس فأذنت لأنه ثبت أن بعض الأمراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تلوذد الفناء عليها أما أنا فثم أر عنى كثرة تجوالي راكباً وماشياً في شوارع باريس وأحيائها موضعاً تحدثك النفس أنه محتاج للإصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء في مكانه وإن مدينة باريس لتتفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تدير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل.

تاريخ الحضارة الفرنسية

٢٣

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما بهم عن معرفة باريس وها نحن أولاء نتوخى في هذا الفصل أن نم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة إلا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسي بتصرف كثير وزيادات.

فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية يحدها المحيط الأطلانطيقي وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الألب والجورا والفوسج ويفصل بينها وبين البنجيك وألمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦.٤١٨ كيلومترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليوناً أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥.٠٠٠ كيلومتر مربع والفرنسيي جميع سكان سوريا أخلط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذي قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وإن فرنسا